البحث الثاني

فلسفة السفسطائيين و أثرها في فلسفة التربية

د.محمود علي محمد*

الملخص

السفسطائية حركة فلسفية نشأت في اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد، والسفسطائي هو معلم البيان والبلاغة مقابل الأجر، أبرز فلاسفتهم "بروتاغوراس" و "جورجياس" وأهم أفكارهم الفلسفية مايلي:

١– الإنسان مقياس الحقائق جميعها، والمعرفة نتيجة الحواس والإدراك الحسي، وهي نسبية وفردية، ولا وجود لها لمعرفة مطلقة.

٢– وقف بعض الفلاسفة السفسطائيين موقفاً لا أدارياً من الآلهة، ومنهم من أنكر آلهة اليونان، وطالبوا البشر بعدم الخوف منها، وعدوا الأخلاق إنجازاً إنسانياً.

٣– طالب السفسطائيون الناس بالتحرر من سلطة التقاليد والأعراف والقوانين الوضعية، وطالبوا الناس بطاعة قوانين الطبيعة وقدموها على القوانين الوضعية.

٤– نادى السفسطائيون بالحرية، وإلغاء العبودية، وتحقيق العدالة والمساواة بين البشر وعدوا الديمقراطية النظام السياسي الأمثل، وحملوا الإنسان المسؤولية عن الأفعال التي اختارها بحرية ومعرفة.

٥– ترك السفسطائيون آثار إيجابية عديدة في فلسفة التربية، وبصورة خاصة في نظرية المعرفة، والأخلاق والقيم، والدين والحرية، وعدوا التربية وسيلة للترقي الأخلاقي.

٦– انتقد "أفلاطون" السفسطائيين لأنهم تقاضوا أجوراً عن تعليمهم، ولقولهم بنسبة المعارف والأخلاق والقيم، قد تعرضت أفكارهم للتشويه، وأطلق على عصرهم عصر التنوير اليوناني بسبب أفكارهم التنويرية الرائدة.

---

* جامعة دمشق–كلية التربية

١- المقدمة

شهدت بلاد الإغريق في الألف الأول قبل الميلاد نهضة فكرية شملت جوانب المعرفة كلها من آداب وعلوم وفلسفة،وتعددت المدارس و المذاهب الفكرية والفلسفية،إلى درجة أصبح من الصعوبة إيجاد تصنيف لهذه المدارس والمذاهب.

لقد اتجهت الفلسفة اليونانية في عصرها الأول نحو الطبيعة الخارجية وبقيت كذلك حتى القرن الخامس ق.م، لذلك أطلق عليها المؤرخون اسم الفلسفة الطبيعية فالفلاسفة الإغريق (كانوا يهتمون بالعالم والطبيعة ولم يكن الإنسان يجذب اهتمامهم إلا عرضا.) (النشار،١٩٦٤،ص٢٠٧). لقد وجه الفلاسفة عقولهم نحو الطبيعة وظواهرها و لم يميزوا بين الظواهر المادية والظواهر الروحية، وحاولوا تفسير الطبيعة برد أصلها إلى مبدأ واحد، أو البحث عن الجوهر الذي ترجع الأشياء كلها إليه.ف "طاليس"(Tales) أرجع أصل الأشياء إلى الماء، وأنكسمندر (Anaximander) أرجعه إلى الجوهر اللامحدود، و"أنكسيمانس"(Anaxiemens) إلى الهواء، و"فيثاغورث" (Phithagorus) إلى العدد، و"هيراقليطس"(Heraclites) إلى النار، وأرجعه "ديمقريطس"(Democritus) إلى الذرات، و"ايمباذوقليس"إلى العناصر الأربعة الماء و الهواء و النار و التراب. (بدوي،١٩٧٩،ص ص ٧٩-٨٣).

ومع بدايات القرن الخامس بدأ الفلاسفة السفسطائيون بالظهور، وبدأت أفكارهم تنتشر حاملة مضمونا جديدا للإنسان و لعالمه الداخلي بوصفهما الوجهة الجديدة للعقل الإنساني، صحيح أن الفلاسفة الطبيعيين عالجوا بعض المسائل المتصلة بالإنسان لكن الطابع الغالب للفكر الفلسفي الإغريقي قبل نشوء الحركة السفسطائية هو الاتجاه نحو العالم الخارجي والاستغراق فيه، أما (العالم الداخلي الذي هو مصدر القيم و موطنها، والإنسان الذي هو أسمى الموجودات وأكملها، فلم يعن بهما بالذات) (النشار،١٩٦٤،ص٢٠٧).

لقد طرأت على المجتمع الإغريقي تحولات سياسية و اقتصادية واجتماعية، أفرزت الحركة السفسطائية التي أسهمت بقوة في تحويل وجهة العقل اليوناني نحو الإنسان، وكان لها الفضل في إثراء الفكر الفلسفي بما طرحته من أفكار جديدة وجريئة الأمر الذي دفع الباحث إلى دراسة هذه الحركة، وتحليل فلسفتها، و بيان أثرها في فلسفة التربية.

٢- مشكلة البحث

نالت الحركة السفسطائية اهتمام الباحثين والمفكرين، وتضاربت الآراء حولها وتناقضت، فمنهم من هاجمها وحط من قدرها وقيمة فكرها،مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، ومنهم من حاول إنصافها مثل "هيجل" و" برتراند رسل"و غيرهم. وقد أشار الدكتور حامد خليل إلى الظلم والتشويه المتعمد الذي لحق بها بقوله: (لم يحدث في تاريخ الفكر الفلسفي أن طمست معالم حركة فلسفية،وشوهت أفكارها، وأجحف في حقها،و أوقع بها أقسى ألوان الظلم والتعسف والجور، ونوصبت العداء، وعوملت بازدراء واحتقار مثلما حدث للحركة السفسطائية.(خليل ،١٩٨٩،ص١١).

ويرى الدكتور علي النشار(أن الفلسفة السفسطائية استبعدت في تاريخ الفلسفة من دائرة التفكير الفلسفي، و قد لقيت الحركة السفسطائية أعنف هجوم و ازدراء من قبل أفلاطون الذي فصل بين الفلسفة والسفسطة .(النشار ،١٩٦٤،ص٢٠٨).

لقد عاد الباحث إلى محاورات أفلاطون كلها و وجد أن الهجوم على السفسطائيين سمة يشترك فيها العديد من هذه المحاورات،و منها:محاورة السفسطائي، محاورة ثيتياتوس، محاورة الجمهورية محاورة بروتاغوراس، محاورة جورجياس الخ. وتابع أرسطو تلميذ "أفلاطون" الهجوم عليهم.

وقد نجح خصومهم في تشويه صورتهم حتى غدت كلمة سفسطائي" سبة على الألسن مع العلم أن العديد من المفكرين انبروا للدفاع عنهم مثل "جومبرس"Gompers" وسئيتا "saitta.

إن الآراء السابقة دفعت الباحث إلى الشعور بالمشكلة ومن ثم تحديدها والتي تتلخص بالسؤالين التاليين: ما أبعاد الفلسفة السفسطائية؟ وما أثر هذه الفلسفة في فلسفة التربية؟ ويرى الباحث أن الإجابة عن السؤالين السابقين محاولة لإيضاح مضمون الفلسفة السفسطائية وأثرها في التربية ،وبصورة خاصة نظرتها إلى الوجود والمعرفة و الإنسان والقيم و التربية الخ.

٣- أهمية البحث

تأتي أهمية البحث من الاعتبارات التالية :

٣-١- البحث محاولة للتعريف بالسفسطائيين و فلسفتهم في جوانبها العديدة.

٣-٢- البحث محاولة لبيان أثر فلسفة السفسطائيين في فلسفة التربية.

٣-٣- البحث إسهام في تحليل فلسفة التربية عند السفسطائيين.

٣-٤- إن البحث حلقة من حلقات الحوار الفكري مع الفلسفات العالمية التي يشكل الإطلاع عليها و تحليلها إغناء لفكرنا الفلسفي و التربوي.

٤- أهداف البحث : يهدف البحث إلى:

٤-١- التعريف بالفلاسفة السفسطائيين.

٤-٢- شرح العوامل والظروف التي أدت إلى نشأة الحركة السفسطائية.

٤-٣- عرض مضمون الفلسفة السفسطائية و تحليله في الجوانب التالية:

الإنسان- الوجود والمعرفة- الدين و الآلهة- السياسة و الأخلاق- الحرية والمسؤولية.

٤-٤- بيان أثر الفلسفة السفسطائية في فلسفة التربية.

٤-٥- بيان أهم الإنتقادات التي وجهت للسفسطائيين.

٥ – الأسئلة التي يجيب عنها البحث

يسعى البحث إلى الإجابة عن السؤالين التاليين:

٥-١- من هم السفسطائيون؟ وما أهم أفكارهم الفلسفية حول الإنسان والمعرفة والدين والأخلاق

والسياسة والتربية.. الخ.

٥-٢- ما أثر فلسفة السفسطائيين في فلسفة التربية في عصرهم بشكل خاص وفي العصور اللاحقة بشكل عام.وعن هذين السؤالين ستنبثق مجموعة من الأسئلة ستشكل الإجابة عنها في النهاية تحقيقا لأهداف البحث.

٦- منهج البحث

إن المنهج التحليلي هو المنهج المناسب لهذا النوع من الدراسات،حيث سيقوم الباحث بعرض الأفكار الفلسفية للفلاسفة السفسطائيين وتحليلها في الجوانب المحددة في أهداف البحث، ثم استخلاص أبعادها الفلسفية والتربوية وبيان قيمتها في إطارها التاريخي من خلال إخضاعها للتحليل النقدي ومقارنتها ببعض الفلاسفة المعاصرين لهم وتحديدا أفلاطون.

٧- حدود البحث

٧-١- حد الزمان: بما أن الفلاسفة السفسطائيين نشؤوا وعرفت أفكارهم في القرنين الخامس والرابع ق.م، سيقتصر البحث على هذين القرنين.

٧-٢- حد الموضوع: سيشمل البحث التعريف بالفلاسفة السفسطائيين وفلسفتهم و أثرها في فلسفة التربية.

٧-٣- حد الأشخاص: سيقتصر البحث على الفلاسفة السفسطائيين وهم: بروتاغوراس (Protagoras) (٤٨٠-٤١٠ق.م)، جورجياس(Gorgias) (٤٨٠-٣٧٥ق.م) هيبياس (Hippias). بروديكوس (Brodecus). أنطيفون (Antiphon) وكاليكلس (Callicles) وثراسيماخوس (Trasymachus) وكرتياس(Critias). مع التذكير أن العديد من الفلاسفة السفسطائيين لا يعرف بدقة تاريخ ميلادهم. لكن ذلك ليس مهماً و الأمر الأهم هو فكرهم الفلسفي وآراؤهم الفكرية. وهم عاشوا في القرنين الخامس والرابع ق.م.

٨-الدراسات السابقة والأدب السالف

٨-١- محلياً

ليس في سورية دراسة علمية محكمة تناولت فلسفة السفسطائيين وأثرها في فلسفة التربية، بل جاءت الدراسات في كتب جامعية في قسم الفلسفة، وفي كلية التربية ومن هذه الدراسات كتاب الدكتور حامد خليل"مشكلات فلسفية"، وكتاب الدكتور عادل العوا " الفلسفة الأخلاقية"، وكتاب الدكتور عبد الحميد الصالح "مبادئ الفلسفة " وكتاب الدكتورة صالحة سنقر"الثقافة الفلسفية" وكتاب الدكتور عبد الله المجيدل والدكتور جلال السناد "المدخل إلى الفلسفة الخ. وهذه الكتب مع أهميتها بوصفها مراجع سيستعين بها الباحث لإنجاز بحثه، إلا أنها بحكم الهدف الذي وضعت من أجله لم تغط مشكلة

البحث، ولم تظهر أثر الفلسفة السفسطائية في فلسفة التربية.

٨-٢- عربياً

عثر الباحث على دراسة عربية محكمة هي رسالة الماجستير للدكتور محمود مراد التي قدمت في جمهورية مصر العربية عام١٩٨٨وتحولت إلى كتاب عام١٩٩٩، بعنوان "الحرية في الفلسفة اليونانية" أفرد فيها الباحث فصلا لدراسة الحرية عند السفسطائيين، و قد ركز الباحث بحكم أهداف بحثه على تجليات الحرية في الفلسفة السفسطائية، وستكون الدراسة من مراجع البحث. ومن الدراسات العربية دراسة الدكتور عزت قرني بعنوان (أفلاطون في السفسطائيين والتربية محاورة بروتاغوراس) ١٩٨٢،تناول الباحث في مقدمة البحث أهم آراء السفسطائيين التربوية وقابلها مع آراء أفلاطون وقد استفاد منها الباحث في معرفة أهم آراء السفسطائيين التربوية، أما بقية الدراسات العربية فقد استفاد منها الباحث، وتوزعت بين العرض المبسط لأفكار السفسطائيين،و بين التحليل العميق لأهم جوانب فكرهم، وبين ناقد موضوعي لفكرهم ومتحامل على فلسفتهم.

ومن العرض السابق وفي حدود علم الباحث ليس هناك دراسة علمية في سورية، والدراسات العربية لم تغط مشكلة البحث رغم استفادة الباحث منها، لذلك تأتي هذه الدراسة محاولة متواضعة، ولبنة صغيرة في الحوار الفكري لفلسفة التربية العربية مع الفلسفات العالمية.

٩- خطة البحث

سيسير البحث وفق الخطة التالية:

١- الفلاسفة السفسطائيون.
٢- العوامل والظروف التي أدت إلى نشأة السفسطائيين.
٣- الإنسان في فلسفة السفسطائيين.
٤- الوجود و المعرفة عند السفسطائيين.
٥- الدين والآلهة عند السفسطائيين.
٦- الأخلاق والسياسة عند السفسطائيين.
٧- الحرية و المسؤولية عند السفسطائيين.
٨- أثر الفلسفة السفسطائية في فلسفة التربية.
٩- نقد الفلسفة السفسطائية.
١٠- نتائج البحث.

فلسفة السفسطائيين و أثرها في فلسفة التربية

قبل الدخول إلى رحاب الفلسفة السفسطائية، لابد من التعريف بالفلاسفة السفسطائيين، وبيان العوامل والظروف التي أدت إلى نشأة فلسفتهم، حتى نتمكن من فهم هذه الفلسفة حق الفهم، ونعطيها حق قدرها، فالفلسفة وليدة الواقع تخرج منه و ترتد إليه، وتفهم في ضوئه. فمن هم الفلاسفة السفسطائيون؟ وما العوامل والظروف التي أدت إلى نشأة فلسفتهم؟

١- الفلاسفة السفسطائيون

تعني كلمة سفسطائي(sophist) المعلم، والسفسطائية(Sophistry) هي الحركة الفلسفية التي تعبر عن القواسم الفكرية المشتركة بين الفلاسفة السفسطائيين في مجال الفلسفة. (لذلك فاسم "سوفيسطوس" (Sophistos) يدل على المعلم في أي فرع من العلوم و الصناعات، وبصورة خاصة "معلم البيان) (كرم،د.ت،ص ٤٥).

والسفسطائيون جماعة من المعلمين أتوا من جزر بحر إيجة إلى" أثينا"في القرن الخامس ق.م ووجدوا فيها البيئة الصالحة لأفكارهم(الجيار،١٩٧٤،ص٦٧) كانوا يطوفون على الأسر الغنية لتعليم أبنائها الخطابة والجدل والبلاغة مقابل أجور باهظة. (ديورانت،المجلد ٧و٨ من قصة الحضارة،ص٢١١). أي إن تعليمهم نموذج لتعليم حسب الطلب (علي،٢٠٠٠،ص١٧٠).

لقد كان السفسطائي محاضراً جوالاً ينتقل من مدينة إلى مدينة ويعلم الشباب بأجر العلوم التي تؤهلهم للمراكز العالية (أفلاطون،المأدبة،ص٨٥) ولذلك وجه لهم أفلاطون (Plato) نقدا لاذعا في محاوراته إذ قال: (سفسطائية،صيد في إثر الرجال الشباب ذوي المكانة و الثروة. تاجر الفضيلة هو صديقنا السفسطائي. مروج السلع الروحية. وبائع السلع العقلية الذي يجني المال من المحادثة هو السفسطائي العجيب.) (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٢،محاورة السفسطائي،ص ص٢١٥-٢١٧).

وبغض النظر عن سلامة نقد أفلاطون أم لا،فهو يوضح طبيعة العمل الذي كان الفلاسفة السفسطائيون يقومون به، ويعود الفضل الكبير لأفلاطون في أنه حفظ لنا في محاوراته أهم أفكار السفسطائيين لأن مؤلفاتهم أحرقت أو ضاعت،و لم يصل إلينا منها إلا شذرات لاتكفي لفهم فلسفتهم.

إذن السفسطائيون أساتذة جوالون ،كانوا يستأجرون قاعات المحاضرات ويدرسون فيها المناهج التي يضعونها، وكان الناس يفهمون كلمة سفسطائي "معلم الحكمة" أو ما نفهمه الآن من لفظ أستاذ جامعي، ولم يكن اللفظ سفسطائي له أي معنى محط بالكرامة قبل هجوم أفلاطون والمحافظين عليهم (ديورانت،المرجع السابق،ص ص٢١١-٢١٢).

أما أشهر الفلاسفة السفسطائيين فهو "بروتاغوراس" الذي ولد في "أبديرا"، مدينة "ديمقريطس"، قصد "أثينا" عام ٤٥٠ ق.م، إذ قربه حاكمها "بركليس"و كلفه بوضع دستور لمدينة "ثورى" وهذا يدل على

مقدرته الفائقة في التشريع والسياسة كان متعدد المواهب، متفوقا في الشعر والنثر والخطابة والجدل والسياسة، كان حسن السمعة بين مواطنيه، اتهم بالإلحاد بعد وضع كتابه في الآلهة، فصودرت كتبه و أحرقت، وفر هاربا من "أثينا" إلى "صقلية" إذ غرقت به السفينة ومات عام ٤١٠ق.م. (المجيدل والسناد،٢٠٠٦،ص ص٥٨-٥٩).

ومن الفلاسفة السفسطائيين الذين ذاع سيطهم جورجياس، الذي ولدفي مدينة "ليونثيوم"، في جزيرة صقلية ،عام ٤٨٠ ق. م، وفد إلى أثينا عام ٤٢٧ ق. م، موفدا باسم مدينته يستنصرها على أهل" سيراقوصة "، فأعجب الأثينيون بفصاحته، وسحر ألبابهم ببلاغته (العوا، المذاهب الأخلاقية،١٩٨٨،ص١٢٠).

ومن الفلاسفة السفسطائيين "بروديكوس"و هو من جزيرة صغيرة اسمها "كيوس" وتاريخ ميلاده غير معروف، لكن يبدو أنه أصغر من "بروتاغوراس، و قد اعترف سقراط بالتلمذة على يديه في مجال اللغة (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٣،محاورة بروتاغوراس،ص٨٤) .

ونذكر أيضا من الفلاسفة السفسطائيين "هيبياس"وهو من مدينة "إليس" التي أوفدته سفيرا رسميا لها إلى" أثينا"، كان يحيط بالكثير من المعارف النظرية والعملية، وقد عاصر سقراط وشابهه في الحوار مع الناس في كل مكان، وكان حاضرا في محاورة "فيدون" لأفلاطون قبل إعدام سقراط٠(النشار،١٩٦٤،ص٢٣١).

وهناك فلاسفة سفسطائيون لم يبلغوا شهرة الفلاسفة السابقين مثل "ثراسيماخوس" الذي ورد ذكره في محاورة الجمهورية ،و "كرتياس" و "أنطيفون" و "كاليكليس" ووصلت بعض أفكارهم الفلسفية وبعد التعريف بالفلاسفة السفسطائيين سينتقل الباحث إلى إيضاح العوامل والظروف التي أدت إلى نشأة الفلسفة السفسطائية .

٢- العوامل والظروف التي أدت إلى نشأة السفسطائية

إن الفكر وليد الواقع، والظروف السياسية والاجتماعية والتي شهدتها بلاد اليونان وكانت وراء نشأة الحركة السفسطائية، فعلى الصعيد الاجتماعي كانت العبودية هي التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية السائدة، وقد حرم الأرقاء والنساء والغرباء من الحقوق السياسية، وكانت نسبة الأحرار إلى العبيد هي الربع، وقد انقسم المجتمع اليوناني إلى فريقين أنصار الأوليغاركية أي حكم القلة، وأنصار الديمقراطية، وأسس كل فريق ناديا خاصا به، ضم النادي الأول الأغنياء والأشراف وكبار الملاك، وضم النادي الديمقراطي أصحاب الملكيات الصغيرة والتجار والبحارة وكانوا يكرهون الأغنياء ويسعون لانتزاع السلطة منهم. (خليل،١٩٨٩،ص١٣).

أما على الصعيد السياسي فقد ظلت "أثينا"في قبضة حكم الأرستقراطيين حتى تعرضت لغزو الفرس في بدايات القرن الخامس ق.م إذ دمروا "أثينا"،فبدا اليونانيون يعملون لملاقاة الفرس بحرا لتعويض هزيمتهم و الثأر من الفرس وحصل لهم ما أرادوا في موقعة "سلاميس" البحرية عام ٤٨٠ق.م ، التي انتصروا فيها على

الفرس، وكانت الطبقات الشعبية الفقيرة هي من صنع النصر، فكافأها اليونانيون بانتخابهم أغلبية المجالس الشعبية منها، وبذلك تراجعت قوة الطبقة الارستقراطية. (مطر،١٩٩٨،ص١١٧).

إن انتصار اليونانين على الفرس، وحلول الديمقراطية كنظام للحكم بدل الأرستقراطية، جعل أهل "أثينا" يشعرون بقدرتهم الإنسانية، ومضوا يستكملون أسباب حضارتهم، مما أوجد الحاجة إلى معلمين خاصة مع ازدياد التنافس الفردي بين الأفراد، وازدياد النزاع أمام المحاكم وشيوع الجدل القانوني، والتنافس السياسي في المجالس الشعبية،الأمر الذي فرض على اليونانيين تعلم الخطابة والجدل واستمالة الجماهير، ولم تعد عراقة النسب والدم، ونبل المولد كافيين في المجتمع الجديد، إن العوامل السابقة مجتمعة كانت وراء نشوء الحركة السفسطائية. (النشار،١٩٦٤،ص٢٠٩).

إن السفسطائية إذن وليدة الديمقراطية، وتطور النظام السياسي في "أثينا"من ملكي أرستقراطي إلى ديمقراطي في عهد "بركليس"، وتركز السلطة السياسية بيد المؤتمر العام الذي كان يضم جميع الأثينين الأحرار، واتباع نظام القرعة في اختيار المسؤولين. (الجيار،١٩٧٤،ص٥٧) كل ذلك يعني أن أي مواطن قد يجد نفسه بين عشية وضحاها مرشحاً لتولي منصب سياسي أو قانوني، وعليه إعداد نفسه من أجل القيام بهذا العمل على أفضل وجه، هذا ما شجع على نشوء السفسطائيين الذين أعلنوا عن أنفسهم بوصفهم معلمين للفضيلة السياسية. (أفلاطون،١٩٩٤،المجلد٣، محاورة بروتاغوراس،ص٥٣).

إن تغير النظرة إلى الفضائل المطلوبة من المواطن، وزوال أهمية عامل الدم والوراثة، وبروز أهمية الصفات العقلية للقادة بدلاً من نبالة الدم، وأهمية إعداد هؤلاء القادة، وأهمية إعداد طبقة من السياسيين لتسيير أمور الدولة بأفضل كفاية، هي العوامل التي وقفت وراء نشوء الحركة السفسطائية.(بدوي،١٩٧٩،ص ص١٦٦-١٦٨).

لقد حارب السفسطائيون التقاليد الموروثة، وشجعوا الحرية الفكرية و حرية الفرد، وأعلوا من شأن الإنسان وغرسوا في عقول الشباب من الأسر الغنية آراءً وأفكاراً مناقضة لما درجوا عليه و كان الشباب يتحمسون لهذه الأفكار الجديدة التي هي نتيجة للديمقراطية على
الصعيد السياسي التي خلقت الاعتداد بالفردية والذاتية. (النشار،١٩٦٤،ص٢١٠).

لقد اتفق العديد من المفكرين على عد الحركة السفسطائية معبرة عن الروح اليونانية في عدة جوانب. **الأول**: أنها تؤمن بالتغير الدائم. **والثاني**: أنها روح تقوم على العقل والفردية والإستقلال الفكري. **والثالث**: أنها تميل إلى النضال، وقد نقلت النضال من الميدان الجسمي إلى الميدان الفكري حيث المنافسة بالخطابة و الكلام .(بدوي،١٩٧٩،ص ص١٧١-١٧٢).

وهناك عوامل أخرى شجعت على نشوء السفسطائية منها اتصال الإغريق بغيرهم من الشعوب و اطلاعهم على عاداتها وتقاليدها وقيمها ودياناتها، وأصبح الإنسان هو الموضوع الرئيسي للدراسات الفلسفية والأخلاقية، كل ذلك شجع على ازدهار الجدل والخطابة مع العلم أن الحركة السفسطائية لم تتوقف عند حدود الخطابة والجدل، بل عبرت عن نفسها بوصفها حركة فلسفية شاملة لجميع جوانب الحياة الإنسانية،

إذ وضعت تصوراتها عن الإنسان والوجود والمعرفة والقيم والتربية، فما مضمون الفلسفة التي طرحها السفسطائيون؟.

٣- الإنسان في فلسفة السفسطائيين

إن الفلسفة السفسطائية فلسفة إنسانية بالدرجة الأولى، وقد قدم الفلاسفة السفسطائيون تصوراً جديدا للإنسان يختلف عن التصورات التي كانت سائدة في بلاد الإغريق والتي جعلت البشر ألعوبة بيد الآلهة، وعليهم بالتالي أن يتصرفوا ويتحركوا وفق ما تقدره لهم تلك الآلهة. إن الصورة الجديدة للإنسان رسمها فيلسوف السفسطائية الأكبر "بروتاغوراس" والتي نقلها لنا أفلاطون في المحاورة المسماة باسمه، واستخدم فيها الأسطورة لإيضاح أفكاره، وتتلخص الأسطورة بأن الآلهة شكلت المخلوقات في سالف الزمان من التراب والنار داخل الأرض، وعندما اقترب موعد خروجها إلى السطح، أمرت الآلهة "أبيميثوس" بتجهيز هذه المخلوقات وتزويدها بما تحتاج إليه من وسائل الحياة والحماية، فأعطى بعضها الأظافر والأنياب والجلد وبعضها سرعة العدو، وأحدثت لكل نوع ما يناسبه من الأطعمة كالبذور والأوراق وغيرها وعندما جاء "بروميثوس" ليعاين التوزيع الذي قام به "أبيميثوس" وجد أن الحيوانات كلها كانت مجهزة بشكل ملائم، وأنه نسي تجهيز الإنسان الذي بقي عارياً وحافياً واعزلاً، وكانت لحظة الخروج قريبة ولم يعرف "بروميثوس "كيف يتدبر أمره لذلك سرق النار والفنون الميكانيكية من مشغل الآلهة "أثينا" و" هيفاستوس"، وأعطاها للإنسان، وبذلك امتلك الإنسان الحكمة اللازمة لبقاء حياته، وهكذا عاش البشر وبنوا البيوت، و صنعوا الأدوات، لكن الجنس البشري عاش مشتتاً، وكان الإنسان ضعيفاً أمام الوحوش البرية، فاهتدى البشر إلى الاجتماع في المدن، والعيش معاً خوفاً من الانقراض والفناء، لكن ما كان يعوزهم هو الحكمة السياسية التي كانت بعهدة الإله "زيوس"، فعامل البشر بعضهم بازدراء وبشكل ذميم ، وكانوا سائرين في طريق التشتت والفناء مرة ثانية، فخاف " زيوس" من انقراض الجنس البشري، فأرسل إليهم"هرمس" حاملاً "المهابة" أو الاحترام و"العدل" ليكونا المبدأين المنظمين للحياة الاجتماعية في المدن ووثاقي الصداقة والوفاق بين البشر، وقد سأل"هرمس" "زيوس": كيف سيوزع فضيلتي العدل والمهابة بين البشر؟ هل لقلة مثل الفنون والصناعات، أم للجميع؟ أجابه "زيوس" للجميع، أحب أن يمتلك كل واحد منهم حصة، فالمدن لايدوم بقاؤها إذا شارك قليل من سكانها في الفضائل فقط، أضف إلى ذلك، شرع القانون التالي بناء على أوامري (إن من لايحوز على جزء من المهابة والاحترام والعدل سيقدم للموت لأنه طاعون الدولة) (أفلاطون،١٩٩٤، مجلد٣، محاورة بروتاغوراس،ص ص٥٥-٥٧).

إن هذه الأسطورة التي وردت في محاورة "بروتاغوراس "توضح صورة الإنسان الجديدة عند السفسطائيين، وتوضح خصائص الطبيعة البشرية كما فهموها، فما ملامح الإنسان في هذه الأسطورة؟ لقد بينت الأسطورة أن الإنسان هو الذي يبدع قيمه الاجتماعية والأخلاقية، وأن هذه القيم ليست معطاة للبشر بصورة قبلية بل إن الإنسان سعى إلى امتلاكها لأنه علم أن الحياة دون قيم مستحيلة، وهذا ما يفسر السبب الذي من أجله أرسل "زيوس" العدالة إلى البشر استجابة لضرورة بقاء الحياة، وللسبب نفسه قرر

"زيوس" إعدام من لا يحمل المبادئ لأنه سيدمر الاجتماع الإنساني، أي(إن الفضيلة والعدالة ليستا ثمرة الطبيعة والمصادفة، بل نحوزها بالممارسة.(مطر،١٩٩٨،ص١٢٢).

والأمر الآخر الذي نستطيع استنتاجه من الأسطورة هو المساواة بين البشر، ونيل كل إنسان حصته من الاحترام والعدل دون استثناء، فالجميع شركاء في الفضيلة السياسية، والجميع مزودون بالفنون الميكانيكية وبالنار، ولديهم جميعا القدرة على إبداع ما يلبي حاجاتهم، فالفضائل لا تعتمد على شرف المولد أو الوراثة، بل هي ثمرة التعلم، أي أن الطبيعة البشرية تتشكل في التاريخ بالعمل والجهد.(خليل،١٩٨٩،ص ص١٦-١٨).

لقد أسقط السفسطائيون الفوارق بين البشر وناقضوا موقف أفلاطون من الطبيعة البشرية التي تصورانها تشكلت من ثلاثة معادن: أناس من ذهب، وأناس من فضة، وأناس من نحاس، والتي عبر عنها أكثر من مرة في محاوراته. (أفلاطون، الجمهورية،د. ت،ص١٠٩) والتي قامت على أساسها فكرة المراتبية السياسية والاقتصادية والاجتماعية واستمرت حتى العصور الحديثة وأدت إلى تبرير الظلم والقهر والاستغلال.

لقد بين "بروتاغوراس" أن الاجتماع الإنساني ليس فطرياً، وإنما فرضته الظروف القاهرة التي مر بها البشر في صراعهم مع الطبيعة، لكن بمجرد دخولهم الحالة الاجتماعية قضي عليهم إلى الأبد أن يبقوا في المجتمع، و لذلك نستطيع القول إن الطبيعة البشرية مرت بمرحلتين في تطورها، **الأولى**: هي حال الطبيعة الأول، **والثانية**: الحالة الاجتماعية التي تقوم على العقل والأخلاق، بينما تقوم الأولى على تلبية متطلبات وحاجات ذات طابع غريزي، وبذلك قدم لنا "بروتاغوراس" (تفسيرا لأصل الحضارة، وفلسفة التاريخ محورها السمو بالإنسان (مطر،١٩٩٨، ص١٢٤). إن الصورة الكاملة للإنسان ظهرت ظهوراً أوضح من خلال "الإنسان المقياس" وهي مقولة "بروتاغوراس" التي ستتضح من خلال فهم نظرة السفسطائيين للوجود والمعرفة.

٤- الوجود والمعرفة عند السفسطائيين

نالت قضية الوجود والمعرفة اهتمام الفلاسفة السفسطائيين، وترتب على نظرتهم إلى هذه القضية تبعات أثرت في فلسفتهم الأخلاقية والتربوية، وأثارت عليهم غضب أحد معاصريهم وتحديداً أفلاطون، لدرجة أنه خصص محاورة "ثياتيتوس" لدحض نظرية المعرفة عند أعدائه السفسطائيين، ومن خلال هذه المحاورة أمكننا أن نعرف العديد من آرائهم حول قضية المعرفة إذ انطلق الفلاسفة السفسطائيون من منطلقين متباينين في تناولهم لقضية المعرفة، **الأول**: يمثله "بروتاغوراس" **والثاني**: يمثله "جورجياس". رأى "بروتاغوراس" أن الوجود دائم السيلان، دائم التغير، والأشياء تنتقل من ضد إلى ضد، ونفى أن يكون هناك وجود بل صيرورة قال "بروتاغوراس" (إن كل الأشياء التي نعلن أنها تكون تأتي إلى الوجود من الحركة والتغيير ومن مزجها ببعضها بعضاً، وإن وجب الكلام عنها وجوباً صحيحاً فليس هناك وجود إطلاقا بل هناك صيرورة دائمة مستمرة). (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٥، محاورة ثياتيتوس، ص١٥٣).

إن النص السابق يكشف أن الحركة أصل الوجود و الصيرورة ،والسكون للاوجود والدمار، لكن السؤال المركزي في محاورة "ثياتيتوس" الذي يطرحه أفلاطون على لسان سقراط، مامعنى المعرفة؟ وما طبيعتها؟ ويجيبه

"ثياتيتوس" ببساطة "المعرفة هي إدراك حسي" فيرد عليه سقراط: إن هذا الرأي هو رأي بروتاغوراس حقا، مع أن لديه طريقة أخرى لإيضاح الفكرة عينها ويذكر سقراط مقولة بروتاغوراس الشهيرة (الإنسان مقياس الحقائق جميعاً، إنه مقياس لوجود الأشياء التي تكون، ومقياس للاوجود الأشياء التي لا تكون) ويسأل سقراط ثياتيتوس إن كان قد قرأ العبارة السابقة؟ فيجيبه ثياتيتوس بالإيجاب.
(أفلاطون، ١٩٩٤، مجلد٥،ص١٥١).

إن العبارة السابقة تشكل جوهر نظرية المعرفة عند السفسطائيين، وفيها رفع "بروتاغوارس" من مستوى الإنسان ليجعله من جهة معيار الحقائق ومقياسها جميعها، ما وجد و ما لم يوجد بعد وهي تفترض (أن الإدراك الحسي في حالة وجود دائم، والإحساس يتغير بتغير الأشياء والأفراد). (بدوي،١٩٧٩،ص١٧٦).

لقد شرح أفلاطون عبارة "بروتاغوراس"على هذا النحو تماماً، فقال:يتبين معناها بالجمع بين رأي "هيراقليطس" في التغيير المتصل وقول "ديمقريطس" أن الإحساس هو المصدر الوحيد للمعرفة فيخرج منها" أن الأشياء هي لدي كما تبدو لي، ولديك كما تبدو لك، وأنا إنسان وأنت إنسان". (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٥،محاورة ثياتيتوس،ص١٥١).

ويضرب أفلاطون مثالاً على ذلك أن الريح عندما تهب فإن واحداً منا يمكن أن يشعر بالبرد ولايشعر به آخر، ويسأل أفلاطون: أتكون الريح باردة بذاتها على نحو قاطع، أم نقول مثل "بروتاغوراس" إن الريح تكون باردة لمن يكون بارداً، وأنها ليست باردة لمن لا يكون بارداً.

و يتوصل أفلاطون من تحليله لكلام بروتاغوراس إلى أن الإدراك الحسي في حالة وجود على الدوام، وأنه يتطابق مع ما يظهر للعيان. (أفلاطون ،١٩٩٤،مجلد٥،ص١٥٢).

ولم يكتف أفلاطون بالتحليل بل وجه نقداً لاذعاً ل "بروتاغوراس"وتهكم عليه بقوله:إن القرد أو الخنزير أو أي مخلوق آخر لديه إحساس يمكن أن يكون مقياس الأشياء، وما دام كل إنسان يمثل القاضي المنفرد لنفسه، وأي حكم يصدره يكون حكماً صادقاً، فلماذا يجهد "بروتاغوراس" نفسه بتعليم الناس؟ ولماذا ندفع له المال إذا كان كل إنسان مقياس؟ (أفلاطون،١٩٩٤، مجلد ٥، محاورة ثياتيتوس، ص ص ١٦٨-١٦٩).

إذن أفلاطون يحمل السفسطائيين مسؤولية إبطال الحقيقة المطلقة، لأنه فسر كلمة الإنسان بمعنى الإنسان الفرد، وحلت الحقائق النسبية محل الحقيقة المطلقة وغدت متعددة بتعدد الأشخاص والحالات، والسؤال: هل قصد "بروتاغوراس "بالإنسان الإنسان الفرد على حده أم قصد أبعد من ذلك أي الذات الإنسانية؟ وتبعا لذلك يكون الإنسان مقياس الحقائق بمعنى أن الحقائق من وضع عقولنا نحن، وأن ليس لها وجود حقيقي في الخارج. (بدوي،١٩٧٩،ص١٧٦).

لقد أخذ بعض المفكرين بتفسير أفلاطون لعبارة " بروتاغوراس" لكن "جو مبرز" عارض هذا التفسير وقال: إن المقصود بالإنسان هنا هو الذات المدركة في مقابل الموضوع المدرك والإنسان بشكل عام أمام

الأشياء، والباحث يوافق "جومبرز"، لكن "برنت" رفض هذا التفسير، واعتبر أن التمييز بين الإنسان الفرد والإنسان كجنس لم يخطر على بال "بروتاغوراس" وأضاف كيف لم يفهم أفلاطون هذا التفسير؟ ناهيك عن أن ديمقريطس انتقد رأي بروتاغوراس ولم يوافق عليه تماماً.(النشار،١٩٦٤،ص٢١٦).

وفي كل الحالات فإن المفكرين منقسمون حول هذه الفكرة مع أن أفلاطون أعلنها نعية لموت الحقيقة في ميدان المعرفة، وتدميراً للقيم المطلقة الأخلاقية والدينية والجمالية، مع أن العديد من المفكرين لايوافقون "أفلاطون" في تفسيره لعبارة "بروتاغوراس" ويستخلصون من تلك العبارة العديد من الفتوحات البشرية في مجال المعرفة ومنها أن " بروتاغوراس" جعل المعرفة إنجازاً بشرياً تنجز بأدوات ووسائل بشرية هي الحواس، ودحض التصورات الميتافيزيقية في مجال المعرفة، ثم إن "بروتاغوراس" جعل العالم الواقعي وأشياءه موضوع المعرفة، ولم يضع مركز المعرفة في عالم المثل المفارق لعالمنا والذي لا يدرك بالحواس بل بالعقل، فضلاً عن أنه جعل المعرفة إدراكاً حسياً مباشراً وليس تذكراً.(خليل،١٩٨٩،ص ص٢٣-٢٤).

أما المنطلق الثاني لتناول قضية المعرفة والوجود فمثله"جورجياس" إذ انطلق من تصور "بارمنيدس " للعالم أنه ممتلئ وساكن ولا مكان فيه للحركة، وقد وضع "جورجياس"كتابا أسماه "في الطبيعة أو اللاوجود" تناول فيه قضايا تتعلق بالوجود والمعرفة، وقد استخدم فيه أسلوب "زينون" في المحاججة، وحاول أن يثبت أنه متفوق عليه في الجدل، وطرح لذلك ثلاث قضايا: **الأولى**: أنه لا يوجد شيء. **والثانية**: إذا وجد شيء لا يمكن إدراكه، **والثالثة**: إذا افترضنا إدراكه فلا يمكن إبلاغه للغير. (ديورانت، قصة الحضارة، مجلد ٧-٨،ص ٢١٥).

وسيعرض الباحث باختصار أراء "جورجياس" في القضايا السابقة:

ففي **القضية الأولى**: يقول إن اللاوجود غير موجود لأنه لا وجود، والوجود غير موجود، لأن هذا الوجود إما قديم أو حادث، فإن كان قديما فهذا يعني أن لا مبدأ له ولامتناه، وهذا يتناقض مع وجوده في المكان المحدود المتناه، أما إذا كان حادثا، فهو حدث بفعل شيء موجود أو شيء غير موجود، فإن حدث بفعل شيء موجود لا يصح أنه حدث لأنه كان موجوداً في الشيء الذي أحدثه،فهو إذن قديم
وفي الفرض الثاني،لا يصح أن يصدر شيء موجود عن شيء غير موجود.

أما في القضية الثانية: فإن وجد شيء لايمكن إدراكه لأن إدراك الأشياء يتطلب أن يكون هناك علاقة تطابق بين تصوراتنا العقلية والأشياء الخارجية لكن هذا باطل فكثيرا ما تخدعنا الحواس وكثيرا ما تركب المخيلة صورا لا حقيقة لها.

أما القضية الثالثة: فهي أننا إذا افترضنا إمكان إدراكه فلا يمكن إبلاغه للغير لأن اللغة هي وسيلة التفاهم بين الناس و نحن لا نستطيع أن نوصل بالكلمات ما هو مدرك بالبصر ولا يوجد تطابق بين الألفاظ والأشياء ونحن ننقل للناس ألفاظنا ولا ننقل لهم الأشياء. (كرم،دت،ص٤٨).

هذه حجج "جورجياس"التي حاول من خلالها إبطال الوجود والمعرفة و إلغاءهما لسبب واحد فقط هو إظهار براعته في البلاغة والمحاججة، فهو في محاولته معارضة فلسفة "بارمنيدس"، وقع في العديد من

المغالطات المنطقية، وأسفر عن عدمية تكاد لا تتفق مع منهج السفسطائيين في التغير والصيرورة، ويرى "جومبرز" أن "جورجياس" لا يقصد بتلك النزعة إنكار الوجود، لكنه أراد إنكار الوجود في ذاته الوجود الواحد الذي أقامه الأيليون، أما العالم الظاهري فلم ينكره "جورجياس" بل ينتقد الأيليين الذين أنكروا شهادة الحواس وسلموا بشهادة العقل، فقدم حججه التي أنكر فيها كل الوجود ثم الصلة بين الفكر والوجود. (النشار،١٩٦٤،ص٢٢٦).

ويرى د.عادل العوا أن "بروتاغوراس" و " جورجياس" متفقان في فلسفتهما، فإن قال: الأول كل حكم حقيقي، جاء جورجياس ليقول: ولا حكم حقيقي،لكن هذا التناقض بين القضيتين ظاهري لأنهما يتكاملان في الواقع. فإن كان كل حكم حقيقي كما قال "بروتاغوراس" فمرد ذلك أنه يعبر عن الظاهر، وإذا كان لا حكم حقيقياً وفقا ل "جورجياس" فذلك لأننا لا نستطيع إدراك سوى الظاهر.
(العوا،١٩٨٨،الفلسفة الأخلاقية،ص١٢١).

وهكذا نرى الفرق بين أفلاطون الذي قال: إن الأشياء ليس لها وجود في ذاتها مستقلة عن الفكر (الشبيني،٢٠٠٠،ص١٥٥) إن السفسطائيين الذين أعطوا الأشياء وجوداً مستقلاً عن الفكر، مع أن بعض المفكرين عدوا براهينهم ظاهرية وأنهم ريبيون عملياً. (مانتوي،١٩٩٤،ص١٤).

٥- الدين والآلهة عند السفسطائيين

وقف السفسطائيون موقفاً جريئاً في معالجتهم لمسألة الدين ووجود الآلهة نظراً لحساسية المسألة خاصة في "أثينا"، فرغم سيادة النظام الديمقراطي، واتساع نطاق الحريات، لكن موضوع الدين والآلهة ظل إلى حد بعيد خارج نطاق هذه الحريات، ويرى ديورانت (أن الجمود الديني في "أثينا" كان أقوى منه في المستعمرات الإغريقية، و"أثينا" مدينة غير متسامحة لو لم تفد إليها طبقة من التجار الدوليين، ولم تفد إليها جماعة السفسطائيين. (ديورانت،قصة الحضارة،المجلد ٧-٨،ص٢١١).

إن السفسطائيين بوضعهم الإنسان مقياس الحقائق جميعها كما قال بروتاغوراس رفعوا من مستوى الإنسان إلى مستوى الآلهة وجعلوا من الذات الفردية أو الذات الإنسانية الحكم في كل القضايا الدينية والأخلاقية مما أثار غضب أفلاطون ودفعه ذلك إلى الرد عليهم في محاورة القوانين بقوله: إن الله يجب أن يكون لنا المقياس لكل الأشياء وليس الإنسان. (أفلاطون،١٩٩٤،محاورة القوانين، مجلد٦،ص١٥٣).

إذن إن جرأة السفسطائيين في مجال المعرفة، وثقتهم بقدرة الإنسان على تحصيل المعرفة بنفسه، وردهم القانون والدين والحضارة إلى الإنسان. (مراد،١٩٩٩،ص٢٩٦) جعل الذات الإنسانية تقف على رجليها بعد فترة طويلة من الاغتراب والخنوع والخوف أمام آلهة ذلك العصر. لقد انقسم السفسطائيون إلى فريقين، وقف الأول موقفاً لا أدرياً حول وجود الآلهة وعلى رأس هذا الفريق "بروتاغوراس" أما الفريق الآخر فقد أعلن الإلحاد الصريح، وعبر فلاسفته عن عدم إيمانهم بآلهة اليونان، وسخروا منها و تهكموا عليها.لكن الدكتور مصطفى النشار يرى (أنهم على اختلاف مناهجهم واهتماماتهم لا يؤمنون بالآلهة ويتشككون في وجودها). (النشار،مصطفى،١٩٩٧،ص٨٤).

إن المدخل المناسب لمعرفة آراء السفسطائيين حول الدين والآلهة قول "بروتاغوراس" الشهير في أحد كتبه عن الآلهة (لا أعلم إذا كانت الآلهة موجودة أو غير موجودة، كما لا أعلم لها شبها وثمة أشياء تقف في وجه هذه المعرفة أهمها غموض الموضوع وحياتنا الفانية قصيرة الأجل) (ديورانت، قصة الحضارة ،مجلد٧-٨ص٢١٤).

إن هذه العبارة جلبت الويلات له إذ قررت الجمعية الأثينية نفيه وإحراق كتبه في السوق العامة، واضطر إلى الفرار خوفا من الإعدام، مع أن بعض المفكرين لم يفهموا من العبارة السابقة أنه يصرح بالإلحاد (فهو لم يشكك في وجود الآلهة، ولم يصل إلى هذا الحد، فهو لم يقل إن الآلهة موجودون لمن يثبت وجودهم، وغير موجودين لمن ينكرهم. (النشار،١٩٦٤،ص٢١٧).

إن موقف" بروتاغوراس" موقف لا أدري يسلم فيه باستحالة التدليل على وجود الآلهة أو عدم وجودهم الآلهة، نظراً لتعقيد الموضوع المطروح، مع أن "برنت "رأى أن بروتاغوراس قد خرج على أعراف اليونان الدينية وطقوسهم. (فخري،١٩٩١،ص٥٦).

والمسألة الثانية التي يحملها قول بروتاغوراس هي قصور الذات البشرية عن معرفة الآلهة وإدراكها حسيا، ومعرفة شكلها ومعرفة شبيه لها ،فالآلهة ليست موضوعاً للإدراك الحسي، والعبارة لها بعد معرفي وليس بعداً لاهوتيا، وهو ليس ملحداً، لأنه صرح أن الإنسان هو الوحيد بين الحيوانات الذي كان له آلهه. (النشار،١٩٦٤،ص٢١٧) .

ويوافق الدكتور مصطفى النشار على هذا الرأي بقوله: وإذا تساءلنا عن موقف بروتاغوراس من الألوهية، وجدنا أن من تعاليمه أن العدل والضمير هبات من الآلهة وهما مشاع لكل الناس، وهذا يعطينا دلالة على إيمانه بالآلهة .(النشار،مصطفى،١٩٩٧،ص٦٤).

إذن إن شك بروتاغوراس معرفي ناجم عن قصور الحواس وقصور الإدراك الحسي بوصفهما وسيلة للمعرفة، وموقفه اللاداري ناجم عن قصر الحياة من جهة ونسبية الجهد البشري وصعوبة الوصول إلى الحقيقة مع أنه يمكن أن تفهم العبارة أنه يشك في وجودهم. (القرني،١٩٩٣،ص ص ٩٢-٩٣). وقد ذكر أفلاطون أن "بروتاغوراس" كان يطلب من التلميذ الذي لايدفع له أجر التعليم (أن يذهب إلى المعبد ويؤدي قسما بقيمة التعليم الذي تلقاه)(أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٣، محاورة بروتاغوراس،ص٢٤).

ويرى الباحث أن بروتاغوراس كان أقرب إلى الإلحاد، فعقله الراجح لم يسمح له بالتسليم الأعمى بمعتقدات اليونانيين، فهو قد استبعد الخوارق والأساطير من دائرة معرفته، وما القسم الذي طلبه من تلامذته إلا مجرد وسيلة لتحصيل أجرة الدروس مستغلا خوف اليونانيين من الآلهة، وقد عد ول ديورانت هذا (خطة حمقاء من معلم يشك في وجود الآلهه) (ديورانت،قصة الحضارة،مجلد٧-٨،ص٢١٣).

أما بخصوص الفريق الثاني من الفلاسفة السفسطائيين ،فقد أنكروا وجود الآلهة علنا، ووضعوا تصوراتهم للكيفية التي وجدت بها الآلهة، وعلى رأس هؤلاء "بروديكوس" الذي رأى أن الناس في الحالة البدائية عبدوا ما ينفعهم كالشمس والقمر والبحيرات والمراعي، فقد أله المصريون نهر النيل، وجعلوا للخمر إلها، وللخبز

إلها، ولكل ما ينفع الناس إلها، وقد عرضته هذه الآراء لنقمة السلطات، فطرد من المدينة بتهمة التحدث إلى الشبان في موضوع خطير(النشار١٩٦٤، ص٢٣٠).

وعد "بروديكوس" أن الأدعية و الصلوات التي نتلوها مجرد مظاهر لنفاق البشر وليست طقوسا مفروضة من آلهة قائمة فعلاً، فالآلهة مخترعات بشرية (مراد،١٩٩٩،ص٢٩٨) أما "كرتياس" فرأى أن الإنسان خالق الآلهة، وسعى إلى إسقاط الدين الذي كان سائداً في بلاد الإغريق، وعلل نشأة الأديان أن البشر كانوا يعيشون حياة فوضى، فاخترعوا القوانين لتحكم بينهم بالعدل، لكن الناس خرقوها في السر، فاخترع رجل ذكي الآلهة لتخويف الأشرار (فخري،١٩٩١،ص ٦٣). وكان "هيبياس" ملحداً، وهاجم "أنطيفون" آلهة الأولومب التي تنتظر الهبات والعطايا من البشر، وعدم وجود حياة أخروية وهما فارغا،ودعا إلى التحرر من هذه المخاوف المضللة للجنس البشري، وأعلن" ثراسيماخوس" أن القول بالآلهة فرض زائد عن الحاجة فما نراه من غياب العدل وانتشار الظلم دليل على عدم رعاية الآلهة للأعمال البشرية وعدم صونها للعدالة(مراد،١٩٩٩،ص ص٢٩٧-٢٩٨).

ومن تلامذة السفسطائيين المسرحي "يوربيدس" الذي سخر من الآلهة في مسرحياته، وعبر على لسان شخوص مسرحياته عن كرهه للآلهة و احتقاره لها، وعد ما يروى عنها من قصص وخرافات باطلة. (الخطيب،٢٠٠٧،ص٣٣٨-٣٣٩).

لقد نجح السفسطائيون في زعزعة معتقدات الإغريق الدينية ، وزرعوا بذور الشك في وجود آلهة الأولومب، فلم يبق لها تلك السطوة على عقول الناس،ولم تعد المخاوف من الموت والحياة الأخروية ترعب اليونانيين.

٦- السياسة والأخلاق في فلسفة السفسطائيين

أدلى السفسطائيون بدلوهم في ميدان السياسة و الأخلاق انطلاقاً من موقفهم المعرفي فبما أن لذات الإنسانية هي المقياس فما عليها إلا أن تعمل على إنجاز النظام السياسي المناسب لها وإبداع القيم الأخلاقية التي تشكل مضمون هذا النظام.

لقد بين "بروتاغوراس" أن البشر يشتركون في فضيلة العدالة على قدم المساواة وإقرارهم هذا جاء نتيجة على ما لاقاه البشر في حالة الطبيعة الأولى من عذاب وقد وهبتهم الآلهة فضيلتي المهابة والاحترام بوصفهما القانونين الأساسيين اللذين بموجبهما انتقلت الإنسانية من البربرية والوحشية إلى طور الحضارة والمدنية. (فالقانون هو الذي يكبح النزعة الفردية لأن العقل الإنساني أو الناس هم الذين شرعوه ويجب أن يخضع الجميع لهذا القانون). (بدوي،١٩٧٩،ص١٧٤).

إذن إن الذات التي تؤسس القانون هي الذات الجمعية ،و يتعين على كل فرد أن يخضع للمعيار الذي تضعه الجماعة،دون أن يكون هذا المعيار مطلقا فما يناسب جماعة ربما لا يناسب جماعة أخرى، والقانون الذي يكون مناسبا في فترة قد يصبح غير مناسب في فترة أخرى، وبذلك تصبح مقولة الإنسان المقياس في هذا الإطار الإنسان الشعب، الإنسان الذي يمثل ثقافة الأمة، أي الإنسان العام الشامل، وقد قرر

السفسطائيون أن هناك أساسين يبرران خضوع الناس للقوانين، الأول: صياغة القوانين من قبل الحكماء، والثاني: أن تكون القوانين خلاصة وثمرة عملية التصحيح المستمرة وغير الخاطئة. (خليل،١٩٨٩،ص ص٢٦- ٢٧).

لقد خالف السفسطائيون سقراط وأفلاطون اللذين عدا أن الأنظمة والقوانين البشرية طبيعية وليست عرفاً. وهاجما السفسطائيين الذين ذهبوا إلى أن الأخلاق والقيم والأنظمة هي عرف قابل للتغيير. (إمام،١٩٩٦،ص٧).

إن ذلك يعني ببساطة أن الجماعة السياسية تقوم على العقل وتهتدي بأنواره وتخضع للقوانين التي وضعتها العقول وحازت شهادة الوجدان الأخلاقي لكل فرد فيه، وأن هذه القوانين ليست مطلقة بل تخضع لعمليات تعديل مستمرة حتى تبقى محققة لمصلحة الأفراد والمجتمعات على حد سواء.

وهناك فريق آخر من السفسطائيين ميز بين الطبيعة والقانون، وعلى رأسهم "هيبياس"، إذ قال: إن الطبيعة هي الصالحة، أما القانون فهو قيد وهو نير ويفرض علينا أن نمارس أشياء عديدة هي ضد الطبيعة غالبا. (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٣،محاورة بروتاغوراس،ص٧٨).

وذهب "أنطيفون" مذهب "هيبياس" لكنه اختلف عنه في أنه طالب الإنسان باحترام القوانين ما دام موجوداً مع الناس، وعندما يصبح وحده ولا يعود يشهده أحد، فيعود يسير وفق قوانين لطبيعة. (القرني،١٩٩٣،ص١٠١).

وانتقد "كاليكليس" القوانين الوضعية وطالب بسيادة قوانين الطبيعة التي تقضي بسيادة الأقوى، فالقوانين الوضعية وضعها الضعفاء كي يتمكنوا من فرض إرادتهم على الأقوياء (مطر،١٩٩٨،ص١٢٧).

وهكذا أيد العديد من الفلاسفة السفسطائيين قانون الطبيعة بدل القوانين الوضعية، فالدولة برأيهم من صنع الضعفاء، وهي و قوانينها شر، بينما تمثل الطبيعة الخير، وقد عبر "ثراسيماخوس" عن الصورة الظالمة للدولة في محاورة الجمهورية بقوله: إن العدالة هي مصلحة الأقوى أي طاعة المرء لقوانين الدولة لأنها هي الأقوى،وهو بهذا الموقف يعبر عن حقيقة الممارسة السياسية في ذلك الوقت لأن الدول كانت تعد أن ما يؤمن مصالح الطبقة السياسية الحاكمة عدالة و ما يخالفها ظلم و جور.(أفلاطون، الجمهورية، د.ت،ص ص٢٣-٢٤).

وانتقد "أنطيفون " القوانين التي تفرق بين الناس على أساس الأصل أو الجنس. فالطبيعة جعلت الناس بالمواهب نفسها فهم جميعاً سواسية سواء أكانوا يونانيين أم برابرة، وطالب آخرون بالمساواة السياسية، فقد رفض "السيداماس" التفريق بين الحر والعبد، وعد ذلك مضاداً ومغايراً لقانون الطبيعة، فالقانون الذي يعاكس قانون الطبيعة قانون ظالم. (العوا، المذاهب الأخلاقية،ص ص١٢٢- ١٢٣).

إن المأثرة التي قدمها السفسطائيون هي تقريرهم أن القوانين من صنع البشر وإبداعهم، وهي أمور اتفاقية، فضلاً عن أنها متغيرة و نسبية ،تعاقد عليها البشر في مرحلة،وتحتاج إلى تجديد التعاقد،وطاعة الفرد لها وتحتاج أيضاً إلى موافقة عقله وإرادته الحرة ووجدانه. (مراد،١٩٩٩ص٣٠٠).

أما بشأن الأخلاق فهي نابعة بالضرورة من الذات الإنسانية؛ والقوانين هي التي تحددها، فهي إنجاز إنساني بالدرجة الأولى، ومن ثم فهي نسبية متغيرة، يحددها الإنسان المقياس الذي أعلن عنه "بروتاغوراس" على رؤوس الأشهاد، فقد أعلن السفسطائيون (عن أنفسهم أنهم معلمون للفضيلة السياسية، الفضيلة في الحياة العامة والخاصة على حد سواء) (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٣،ص٩٤).

لقد حدد "بروتاغوراس" معنى الفضيلة فرأى أن السار هو الصالح والمؤلم هو السيئ، أي إن اللذة هي الخير، والألم هوا لشر، شريطة ألا تؤدي اللذات المؤقتة إلى شرور أكبر وآلام أشد ويكمن خلاص البشر في معرفة الملذات والآلام معرفة صحيحة، وقد اتفق سقراط مع بروتاغوراس" في أن للمعرفة الدور الأكبر في تحديد الخير والشر واختيار الأعمال المشرفة (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٣ ،ص١٠٥-١٠٧).

لقد اختلف أفلاطون مع السفسطائيين حول قضية تعليم الفضيلة، فبروتاغوراس رأى أن الفضيلة والمعرفة أسمى الأشياء الإنسانية، وأن الفضيلة يمكن أن تعلم، مع تسليمه أنه أمر صعب أن يكون الإنسان فاضلاً، والفضيلة صعبة المنال، لكن أفلاطون عارضه ورأى أن الفضيلة لا تعلم، واتفق الرجلان في النهاية على أن الإنسان الفاضل هو الذي يغلب العقل على الشهوة والإنسان الفاضل لا يسمح لنفسه أن تقهر باللذة. (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٣،ص٩٩).

لكن بعض السفسطائيين طرح مفهوماً آخر للفضيلة والأخلاق وأبرزهم "كاليكليس" الذي رفض عد الاعتدال فضيلة وطلب من الإنسان أن يعيش بحق وأن يسمح لرغباته أن تكبر إلى أقصى حد، وأن يعمل على إشباع ملذاته حتى يعيش بغبطة وسعادة إلى أقصى حد يستطيع، وانتقد المطالبين بالاعتدال وقال: إنهم عاجزون عن تلبية ملذاتهم فيثنون على الاعتدال والعدل بسبب ما يعتريهم من جبن. (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٢،محاورة جورجياس، ص٣٧٧).

إذن السفسطائيون موزعون بين أخلاق اللذة، وطاعة القانون الأخلاقي الذي يضعه العقل، لكنهم جميعاً متفقون أن الفرح والسرور خير، وأن الألم شر، ويبقى الإنسان هو المقياس والحكم الأخلاقي الأوحد لسلوكه وعقله وإحساسه هما معيار الصواب والخطأ وقاضي الخير والشر، إن أبرز انتقاد واجه السفسطائيين هو الهبوط بالقيم الأخلاقية المطلقة إلى مستوى الإحساس الفردي للإنسان، وبذلك تموت هذه القيم بوصفها مثلا أعلى تتجه إليه النفوس والعقول، ويضيع القانون الأخلاقي الذي يوحد الصور العديدة للأفعال الأخلاقية، ويسمو فوق التجربة الحسية، وأمر آخر هو أن السفسطائيين فصلوا الأخلاق عن الدين فجعلوا مصدر الأخلاق هو التجربة الإنسانية بما فيها من لذة وألم. فاستبعدوا الله كليا من النسق الأخلاقي، وهذا أمر جلب لهم الكراهية من الجماهير البسيطة التي كانت تجد في الآلهة المثل الأعلى لكل حق وخير وجمال.

٧- الحرية والمسؤولية في فلسفة السفسطائيين

آمن السفسطائيون بالحرية الإنسانية، وجعلوا منها شعاراً وأملاً، وعقيدة للعمل، وسعوا من خلال

نظرتهم إلى المعرفة والدين والأخلاق، إلى تحرير الإنسان من الأعراف والتقاليد السائدة، ومن الخرافات والأوهام التي كبلت عقله وسلوكه، وجعلته ألعوبة في يد القدر، ووسيلة تلهو بها آلهة لا يعرف لسلطانها حدود.

لقد أكد السفسطائيون أن الإنسان حر، وهو في الوقت نفسه مسؤول عن الأفعال التي اختارها فهذا هو "بروتاغوراس" يؤكد أهمية مسؤولية الإنسان عن أفعاله طالما اختارها بمحض إرادته الحرة وليس بفعل أي قهر خارجي، وإلا لما كان لأشكال العقاب والتأنيب أي معنى فمن الحماقة برأيه أن نعاقب إنسانا على جريمة تعود إلى قوى غير إرادته الحرة كالطبيعة أو الصدفة أو القسر.
(أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٣،محاورة بروتاغوراس ،ص٦٠).

إن "بروتاغوراس" في طرحه للمسؤولية يتمسك بمبدأين: **الأول**: أن الجميع متساوون أمام القانون. **والثاني**: أن الجميع أحرار ومسؤولون عن أفعالهم المختارة، وبالمثل حلل جورجياس "المسؤولية تحليلاً سيكولوجياً، حينما عد الإنسان غير مسؤول عن الأفعال التي يقوم بها تحت تأثير الجبر الإلهي، أو ضغط القهر الإنساني، أو تحت تأثير إغواء الكلام المعسول، أو بتأثير الوقوع في الحب، فبرأي "جورجياس"هذه الحالات تعفي الإنسان من المسؤولية. (مراد،١٩٩٩،ص٣١٥-٣١٦).

إن ما يؤكده "جورجياس"و "بروتاغوراس"هو توافر عنصر المعرفة والقصد لكي تأتي أفعال الإنسان وليدة اختياره العقلاني الحر مع عدم موافقتنا على إعفاء الإنسان من المسؤولية كما حددها "جورجياس" فإن كان الإنسان لا يستطيع أن يقاوم إرادة الآلهة لكنه يستطيع أن يقاوم سحر الكلام المعسول ويستطيع أن يتمرد على القهر الإنساني ويعلي من شأن إرادته الحرة ويجعلها تسيطر على عواطفه ليكون جديراً بالحرية وأهلاً للمسؤولية.

لقد عالج "بروديكوس" هذه الفكرة في أسطورة "هرقل" فهرقل الذي خير بين طريق الخير والشر بين طريق الفضيلة الصعب والمؤلم، وطريق الرذيلة السهل والممتع، اختار الفضيلة ليؤكد حرية الإرادة الإنسانية، ودور الإنسان في اختيار أفعاله، فالفضيلة متوقفة على حسن الاختيار وبذل الإنسان الجهد الكبير في اتخاذ قرارات صائبة في المواقف التي تواجه الإنسان في حياته العملية. (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٣،ص١٠٦).

و أكد "هيبياس" أهمية الحرية الإنسانية التي تتجلى في تغليب الإنسان ميوله الخيرة على ميوله الشريرة، وأكد في محاورة "هيبياس" الصغرى أن المجرم إذا ارتكب جريمته عن اختيار وإرادة يدان بشدة أكبر من الحالة التي يرتكب فيها الجريمة تحت ضغط أو إكراه أو دون قصد، وقد سار"هيبياس"في حياته العملية وفق مبدأ الاكتفاء الذاتي أي قام بإبداع كل ما يلزمه وصنعه حتى يؤمن الحرية والاستقلال عن المجتمع. (أفلاطون،١٩٩٤، مجلد٤، محاورة هيبياس الصغرى،ص ص ٢٥١-٢٥٧).

وأكد "أنطيفون" أن الحرية في النهاية هي سيادة العقل، وأنكر"كرتياس" القدر وعده خرافة قالها عقل أخرق، وبرأيه نحن الذين نبني شخصيتنا بأنفسنا،وأن أفعالنا يجب أن تنبع من ذواتنا الحرة وهكذا رأينا أن

السفسطائيين أعلوا من شأن الفردية، والاستقلالية، وجعلوا الذات الإنسانية فوق الأعراف والتقاليد والقوانين حرة و مسؤولة.

٨- أثر فلسفة السفسطائيين في فلسفة التربية

تركت فلسفة السفسطائيين آثارا لا تمحى في فلسفة التربية في عصرهم وفي العصور اللاحقة لهم، ورغم ما تعرضت له الفلسفة السفسطائية من تشويه متعمد من قبل معاصريهم ومن قبل من جاء بعدهم، فإن تلك الآثار بقيت واضحة تفعل فعلها، وتتلخص تلك الآثار بما يلي:

٨-١- في المجال المعرفي

لعل أهم أثر تركه السفسطائيون و تحديداً "بروتاغوراس"في فلسفة التربية هو نظرية المعرفة الإنسانية، التي ترى أن المعرفة تأتي إلينا عن طريق الحواس والإدراك الحسي، ففتح السفسطائيون أعين البشر بعد أن كان أفلاطون قد طلب إغلاقها، وأعادوا الاعتبار للحواس بعد فقدانها لدورها في المعرفة على يد "سقراط" و "أفلاطون".

إن النظرة إلى الإنسان بوصفه المقياس لصحة المعرفة التي يحصلها بنفسه وبجهده ،فتح جديد للمعرفة والتربية، إذ أصبح قادراً الإنسان على أن يتعلم وعلمه صحيح. فعقله قادر على الحكم وليس بحاجة إلى وصاية من أحد، فضلاً عن الاعتراف بالعالم الخارجي بوصفه مصدراً أساسياً للمعرفة، وبذلك لم تعد الحاجة إلى جدل صاعد ليرقى بنا إلى عالم المثل الذي جعله أفلاطون مصدر المعرفة. (صليبا،١٩٩٥،ص٤٩) .

أثار هذا الأثر المهم غضب أفلاطون لأنه نسف نظرية المعرفة عنده تماما، وقضى على أرستقراطية " المعرفة واحتكارها وجعلها متاحة لجميع البشر في كل زمان و مكان، وهذا أهم مبدأ من مبادئ فلسفة التربية الذي نطلق عليه اسم ديمقراطية التعليم، صحيح أن نطاق تلك الديمقراطية لم يكن واسعاً إلى الدرجة التي شمل فيها كل أفراد المجتمع لأن السفسطائيين كانوا يتقاضون أجراً أي إن الفقراء لن يستطيعوا دفع أتعاب المعلم لكن ذلك ليس بسبب السفسطائيين بل بسبب النظام العبودي البغيض الذي عمل السفسطائيون على تقويضه بينما دافع أفلاطون وأرسطو عنه.

لقد تلقفت فلسفة التربية الحديثة فكرة السفسطائيين عن دور الحواس في المعرفة، وجعلت منها المبدأ الأساسي للعديد من الفلسفات الحديثة في التربية فهذا "جون لوك" (Locke) يرى أن الحواس هي أدوات المعرفة، ولا وجود لمبادئ فطرية في النفس، ولا وجود لأية حقيقة في العقل لا تدركها الحواس (ديورانت، قصة الحضارة، المجلد٧-٨،ص٢١٣).

والأمر الآخر الذي أخذته فلسفة التربية الحديثة هو عدم التسليم بوجود معرفة مطلقة أو حقائق مطلقة عند البشر، فالمعرفة نسبية، وما يوجد حقائق يؤمن بها بعض الناس في ظروف خاصة، والأقوال المتناقضة حقائق في أذهان أشخاص مختلفين في أزمنة وأمكنة مختلفة، والحق والخير والجمال أمور نسبية وشخصية، وإن ذات الإنسان هي المقياس الذي تقاس به الأشياء جميعها. (ديورانت،المرجع السابق،ص٢١٣).

لقد أخذت التجربة الإنكليزية برأي السفسطائيين في مجال المعرفة، وأخذ الفلاسفة البراغماتيون وبصورة خاصة "شارل بيبرس" و "وليم جيمس" بمبدأ عدم وجود حقائق مطلقة وأن الحقيقة نسبية،وقد أصبح هذان المبدآن من أهم المبادئ التي توجه التربية وفلسفتها في أنحاء عديدة من العالم، وكان السفسطائيون من أوائل من بشر بها.

أما **المبدأ الثالث** الذي أثر في فلسفة التربية،هو توجيه المعرفة وجهة نفعية تتحقق من خلالها مصلحة المتعلم. فحينما سئل "بروتاغوراس" عن المبدأ الذي من أجله تكتسب المعرفة، وماذا يقدم للطالب؟ فقال: (حسن التدبير والتعقل وتحقيق النجاح في الحياة العامة والخاصة،وتجعله بارعاً وقديراً في القول والعمل). (أفلاطون، مجلد٣، محاورة بروتاغوراس، ص ص٥٢-٥٣).

وبذلك وجه المعرفة وجهة نفعية لخدمة الإنسان في حياته الخاصة والعامة على حد سواء، وهي ليست ترفاً تزاوله طبقة أرستقراطية متخمة معزولة عن العمل ومحيطه الاجتماعي، وقد أصبحت المنفعة أحد مبادئ التربية الطبيعية عند روسو. (روسو،إميل، ١٩٥٦، ص٣٠٥) .

وأبرز السفسطائيون أهمية المعرفة ودورها في الترقي الأخلاقي، ودورها في تحقيق الحرية والمسؤولية الأخلاقية، وفي الوصول إلى الفضيلة ،وقد أكد "بروتاغوراس" أهمية هذه الأفكار في أكثر من مكان، ونحا "جورجياس" المنحى نفسه فقال: "إنه لا يعلم الشباب الخطابة والإقناع فقط. بل"الفضيلة السياسية"، ويعتبر أن هذا الفن هو الخير الأعظم الذي يشعرهم بالحرية في نفوسهم، وبالقوة في التحكم بالآخرين. (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٢، محاورة جورجياس، ص٣١٦).

٨-٢- في مجال الفكر التربوي والممارسة التربوية

من المعروف أن أي ممارسة تربوية لابد أن تستند إلى خلفية فلسفية نأخذ منها المبادئ والأهداف التي توجه مسيرة التربية، و تضبط العمل التربوي، و أهم المبادئ التربوية التي طرحها السفسطائيون والتي أعلن عنها "بروتاغوراس" في كتاب له حول التربية:

آ – يحتاج التعليم إلى الموهبة والمران ،ويجب أن يبدأ التعليم منذ الصغر.

ب– لا نظر دون عمل ولا عمل دون نظر.

ج– لا تنتعش الثقافة في روح الإنسان إلا إذا تعمق بها.(النشار،١٩٦٤،ص٢١٨).

لقد استطاع السفسطائيون أن يقنعوا اليونانيين بمبدأ هام هو أن الفضيلة يمكن أن تعلم، وأن التربية هي وسيلة للترقي، والأخلاق والفضائل ليست ميلاً فطرياً عند الإنسان بل إنها تكتسب بالتربية التي تحيل الإنسان الشرير إلى إنسان خير، والنفس الشريرة إلى خيرة، مثلما يفعل الطبيب بأمراض الجسم شريطة توافر المعلم القدير، وأن يبدأ التعليم منذ الصغر، هذا ما أكده "بروتاغوراس" مرات عديدة في حواره مع سقراط الذي كان يعتقد أن الفضيلة لا يمكن تعليمها بل هي هبة من الله تولد مع النفس بشكل فطري، وقد استعان "بروتاغوراس" بالأمثلة الواقعية لإثبات صحة رأيه، ومنها الفروق بين المتعلم وغير المتعلم كدليل على أن الفضيلة شيء يمكن تعليمه. (أفلاطون،١٩٩٤، مجلد٣، محاورة بروتاغوراس، ص ص ٥٨-٦٣).

و قدم "هيبياس" النموذج العملي والقدوة والدرس الأهم لفلسفة التربية في شمول معارفه جوانب المعرفة كلها،وفي توجيه التربية وجهة عملية، ف "هيبياس" وكما سبقت الإشارة إليه طرح مبدأ الاكتفاء الذاتي للفرد، فقد وفد إلى الألعاب الأولمبية وهو يلبس ثياباً من صنعه، ويحمل سلاحاً من صنعه، ونظم أشعاراً وكتب خطبة بيده، والدرس المستفاد منه هو أن المعرفة يجب أن تتحول إلى عمل وممارسة، وأن لا قيمة للفكر النظري ما لم يرتبط بالعمل، فالمعرفة ذات قيمة عملية وهي أداة للتحرر، أي إننا أحرار بمقدار ما نملك من معرفة، وهذا هو الدرس الذي تحاول فلسفة التربية استيعابه ونقله إلى النظرية التربوية. (أفلاطون،١٩٩٤،مجلد٤،ص ٢٥١-٢٥٢).

أما بخصوص العقاب في التربية فقد وافق عليه السفسطائيون وعلى رأسهم "بروتاغوراس" شريطة ألا يقصد منه الانتقام بل الردع وإصلاح الخطأ وتهذيب النفس وإصلاحها لتسير وفق مبادئ الأخلاق والعدالة. لكن استخدام العقاب يتناقض مع نظرية المعرفة عندهم والباحث يرى أن السفسطائيين أخطأوا في اقتراح التطبيق التربوي الذي ينسجم مع نظرية المعرفة عندهم. وأبوا إلا أن يحملوا شيئاً من أفكار عصرهم التربوية.

ويعود الفضل للسفسطائيين في إدخال الحوار والجدل بوصفها طريقة من طرائق التدريس إذ حللوا أشكال الحوار، وعلموا الناس كيف يكتشفون الخطأ المنطقي، وطبقوا منهج التحليل العقلي في مختلف جوانب الحياة، وفي مختلف جوانب المعرفة، لبناء العقل الذي يفهم ويحاكم، يقبل ويرفض، بناء على نتائج التحليل العقلي، وقد اعترف سقراط بالتلمذة على أيديهم في مجال النحو والجدل والمنطق، وهم أبوا أن يعظموا التقاليد المتواترة إذا لم تؤيدها شواهد الحس أو منطق العقل. (ديورانت،مجلد ٧-٨،قصة الحضارة،ص٢١٧).

٨-٣- في مجال الأخلاق والسياسة

لا يخفى على أحد الصلة الوثيقة بين السياسة والتربية وبين الفكر السياسي والفكر التربوي، فقد أعطت فلسفة السفسطائيين فلسفة التربية مبادئ أخلاقية وسياسية جعلت التربية بعدهم تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه قبلهم، فهم بإقرارهم الحرية الإنسانية وضعوا أمام التربية أهم مبدأ أخلاقي وسياسي وتربوي، الحرية التي طرحها فلاسفة السفسطائيين حرية عملية، فهذا هو "بروتاغوراس" سيجعل الشباب أحراراً فاضلين قولاً وعملاً، و"جورجياس" سيجعلهم يشعرون بالحرية في حياتهم العامة والخاصة، فالحرية لن تكون مجرد شعار، بل هي حرية أخلاقية تقوم على الفضيلة والعقل، والمعرفة والتربية أداة ووسيلة لضبط الشهوات، وهذا ما صرح به "أنطيفون" بقوله: (لا شيء أعظم تهديداً لحرية الإنسان من انغماس الإنسان بالشهوات والملذات)، والحرية لا تعني الفوضى بل هي تحكم بالشهوات والنوازع، وتحرر من سلطة العادات والتقاليد وسلطة الآلهة والقوانين الظالمة.
(مراد،١٩٩٩،ص ص٣٠١-٣٠٢).

و طرح السفسطائيون مبدأ الديمقراطية في السياسة وأساسها حكم الأغلبية، وقد انتقد أفلاطون هذا النظام في محاوراته، وعده أسوأ أشكال النظم السياسية، لأنه برأيه يؤدي إلى وصول الرعاع إلى السلطة. فدافع السفسطائيون عن هذا المبدأ، ونقلوه إلى التربية، فغدت الديمقراطية ليست نظاماً للحكم بل أسلوبا للحياة في السياسة والتربية. حينما دعا السفسطائيون إلى تجاوز قيم المجتمع القديم في أن التعليم لا يليق إلا بالصفوة. فأخرجوا العلم من دائرة الأسرار إلى العلن. (مطر،١٩٩٨،ص١١٩).

أدى المبدأ السابق إلى توجيه النقد للسفسطائيين، لأنهم جعلوا المعرفة لكل الناس، خاصة أنها ترافقت مع دعوتهم إلى إلغاء الرق والعبودية، مما حدا ببعض المفكرين إلى تشبيه عصرهم بعصر " التنوير الأوروبي" في القرن الثامن عشر، وأهم الصفات والخصائص التي يلتقي فيها عصر السفسطائيين مع عصر التنوير الأوروبي ما يلي:

آ– الأيمان بالتقدم المستمر نحو الغاية الأساسية للإنسانية.

ب– جعل العقل الحكم المطلق في كل شيء وإخضاع التقاليد والعقائد الموروثة لحكمه.

ج– إعلاء النزعة الفردية والاستقلالية للإنسان وجعلها أساس كل إنجاز في الفن والأخلاق والعلم والدين. مما حدا بالمفكرين إلى اعتبار قرن السفسطائيين قرن التنوير في الحضارة اليونانية. (بدوي،١٩٧٩،ص١٨٠).

إن العرض السابق يوضح الأثر الكبير الذي تركه السفسطائيون في فلسفة التربية في عصرهم وفي العصور التالية، والمبادئ التربوية السابقة هي نفسها المبادئ التي سعى فلاسفة السفسطائية لغرسها في عقول الشباب الأثيني، وربما يكون السفسطائيون أول من لفت الأنظار إلى أهمية تعليم الشباب، وأول من وضع مناهج لتعليمهم وتدريبهم التدريب اللازم لنجاحهم في الحياة السياسية والعملية، وهم من جعل فلسفة التربية في أنحاء عديدة من العالم تضع تعليم الشباب في رأس أولوياتها التربوية. لكن السؤال الذي يبرز لماذا تعرض السفسطائيون لهذه الدرجة من النقد؟ وهل الانتقادات التي وجهت لهم صحيحة؟ هذا ما سيحاول الباحث كشفه في الفقرة التالية.

٩– نقد الفلسفة السفسطائية

تعرض السفسطائيون لانتقاد مرير من أيامهم الأولى حتى الوقت الحاضر، إذ وظف أفلاطون عبقريته الفذة لتشويه أفكارهم وسلوكهم، وجعلهم موضع احتقار الناس وتندرهم، وقد أفلح في تحقيق تلك المهمة نجاحا منقطع النظير، وأصبح لفظ سفسطائي سبة وعاراً، ومصدراً للتهكم والسخرية في نظر البشرية حتى عصرنا الحاضر إلا في حالات نادرة حدثت فيها محاولات قليلة لإحياء فكر السفسطائيين و تقديمه للناس كما هو دون إساءة أو تشويه كما فعل أفلاطون (خليل،١٩٨٩،ص١٢). فما أهم الانتقادات التي وجهها خصوم السفسطائيين لهم وما مدى صحتها؟ إن الباحث يرى أن أهم الانتقادات ما يلي:

٩–١– انتقد أفلاطون السفسطائيين أنهم كانوا يتقاضون أجوراً عن تعليمهم الشباب،

وأنهم يتاجرون بالفضيلة، وقد كرر أفلاطون النقد في أكثر من محاورة، ومثال على هذا النقد ما قاله في محاورة مينون متهكما: من هم معلمو الفضيلة، أليس السفسطائيون هم الذين يدعون ذلك، ويتقاضون أجوراً، مجنون من يسمح لنفسه أن يفسد بهم، والرجال الذين يعطوهم المال معتوهون، والمدن التي تسمح لهم بدخولها ولا تطردهم خارجها فإن مواطنيها مجانين. (أفلاطون، ١٩٩٤، مجلد ٤، محاورة مينون، ص ص ٢٣٣-٢٣٤).

هذا غيض من فيض من النقد الذي وجهه أفلاطون للسفسطائيين، إن كان يستحق أن يسمى نقداً، لأنه أشبه بالشتيمة،لمجرد أنهم تقاضوا المال لقاء قيامهم بتعليم أبناء الطبقات الغنية حيث نزلوا بالتعليم إلى مستوى الحرفة، وجعلوه وسيلة لكسب الرزق، وهذا ما لم يقبله اليونانيون، وأعطى المبرر لأفلاطون أن ينهال عليهم بنقده اللاذع.

إن الباحث لا يرى أن السبب الحقيقي هو تقاضي الأجر، ولا يرى في عمل السفسطائيين أي أمر مشين حتى في إطاره التاريخي، فهم غرباء عن "أثينا" وحرفتهم هي التعليم، فمن أين يعيشون إن لم يتقاضوا أجراً؟ فإذا كان أفلاطون من أسرة أرستقراطية، ويعيش من جهود العبيد، فالسفسطائيون لم يكن لديهم عبيد، ورأسمالهم هو علمهم وجهودهم، والغريب أن عبقرية أفلاطون سمحت له باسترقاق الناس، وأخلاقه سمحت له بتسويغ العبودية، ونحا أرسطو المنحى نفسه، وهما معاً وجها للسفسطائيين أبشع الأوصاف لأنهم تقاضوا أجراً، فهل تقاضي الأجر جريمة و استعباد الناس واسترقاقهم فضيلة ؟ وهل من يتاقضى أتعابه إنسان فاسد ومن يسترق الناس ويستعبدهم إنسان فاضل؟

٩–٢– انتقد أفلاطون السفسطائيين لقولهم إن المعرفة نسبية وهي ثمرة الحواس والإدراك فقضوا بذلك على الحقيقة المطلقة، وأنهم استخدموا البلاغة والجدل والتلاعب بالألفاظ من أجل البرهان على القضية والبرهان على صحة نقيضها. (سنقر،١٩٩٠،ص ص١٠-١١).

إن هذا النقد صحيح، فالحقيقة المطلقة لا وجود لها إلا في عقل أفلاطون، ومأثرة السفسطائيين أنهم سبقوا عصرهم و قالوا بنسبية المعرفة، وأعادوا إلى الحواس والإدراك الحسي دورهما وأهميتهما في عملية المعرفة، وعدوا المعرفة ثمرة الجهد والعمل وليست تذكراً كما زعم أفلاطون، ثم أنهم جعلوا المعرفة في هذا العالم بالذات وليس في عالم مفارق. أما عن استخدامهم الجدل والتلاعب بالألفاظ للبرهان على القضية ونقيضها فهذه إحدى أساليب ذلك الزمان في إظهار البراعة في البلاغة والجدل، وقد استخدم الأيليون هذا الفن ببراعة لكن العيب لحق السفسطائيين وحدهم.

٩–٣– انتُقِدَ السفسطائيون أنهم أنكروا آلهة اليونان، وسخروا منهم وتهكموا عليهم، وهزوا أسس الاعتقاد والإيمان بها، وزرعوا بذور الشك في عقول الشباب، مما جعل الطبقات المحافظة تتوجس منهم، وهذا النقد صحيح، لكنه يسجل للسفسطائيين وليس عليهم، ولا عجب في ذلك، إذا عرفنا أية آلهة كانت تعبد في ذلك الزمان، "زيوس" و"هيفاستوس" وأثينا"، هيرا" الخ.. آلهة تكذب وتبطش وتغدر و تزني وتدبر

المؤامرات والدسائس و الخيانة، فهل تستحق آلهة كتلك إلا الإنكار والتهكم؟ وهل أخطأ السفسطائيون بإنكارها وأصاب غيرهم بعبادتها وتبجيلها؟

٩-٤- انتقد السفسطائيون أنهم قالوا بنسبية القيم وفرديتها، فقضوا بذلك على القيم المطلقة الأخلاقية والجمالية، وأطلقوا العنان لشهوات الإنسان ورغائبه، وجعلوا الفرد يتمرد على المجتمع وعلى قيمه، وقدموا المصلحة الخاصة على العامة، وهذا النقد غير دقيق فهذا هو "بروتاغوراس" يشترط أن تكون اللذة شريفة، وطالب البشر الالتزام بالأخلاق الاجتماعية الصالحة، والقيم التي تسمو بالإنسان وترفعه إلى مستوى إنسانيته (أفلاطون،١٩٩٤، مجلد٣، ص٩٧). حتى "كاليكليس" الذي طالب الإنسان أن يحوز الرغبات جميعها، وأن يعمل كل جهده لإشباعها، إلا أنه عاد ليؤكد أن بعض اللذات صالحة وبعضها ضارة، وطالب الإنسان أن يمتلك المعرفة لاختيار أفضل اللذائذ. (أفلاطون ،١٩٩٤، مجلد٢، محاورة جورجياس، ص٣٩٠-٣٩١).

والنتيجة التي تظهر بوضوح أن الانتقادات التي وجهت للسفسطائيين لها أسباب أخرى تقف خلفها أهمها: دعوتهم الناس للتحرر من رق العقول، والتحرر من الخوف من آلهة خلقتها المخيلة الشعبية، وعدهم الإنسان هو المقياس لكل الحقائق، ودعوتهم للمساواة بين البشر، والقضاء على نظام الرق والعبودية، ونشرهم المعرفة والعلم بين الناس، ومناصرتهم للديمقراطية السياسية التي لا تنظر إلى نبل المولد، وعراقة النسب والدم، بل تأخذ بالإمكانيات والقدرات التي يحصل عليها الإنسان بعقله وجهده وإرادته، الإنسان المتسامح الذي يقبل الرأي والرأي الآخر، ويرفض التسلط والقهر والظلم. هذه هي الأسباب التي سبق بها السفسطائيون عصرهم. فهم ولدوا قبل أوانهم، لكنهم ، ظلوا خالدين.

١٠- نتائج البحث

في ختام البحث يستطيع الباحث أن يوجز أهم نتائج البحث بما يلي:

١٠-١- السفسطائيون جماعة من المعلمين عاشوا في القرنين الخامس والرابع ق.م، وكلمة السفسطائي تعني المعلم في حرفة أو مهنة وبصورة خاصة معلم البيان، وأبرز فلاسفتهم "بروتاغوراس" و"جورجياس" و "هيبياس".

١٠-٢- قدم السفسطائيون في فلسفتهم نظرة جديدة للإنسان جعلوه مقياس الحقائق جميعها، يبدع قيمه ومعرفته، ويبني حضارته ومجتمعه بعقله وإرادته.

١٠-٣- قدم السفسطائيون في فلسفتهم، نظرية جديدة للمعرفة، فهي نتيجة عمل الحواس والإدراك الحسي، ونحصل عليها من الطبيعة المحيطة بنا، والتي هي في حالة صيرورة دائمة.

١٠-٤- أنكر السفسطائيون آلهة اليونان القديمة وبعضهم كان ربيبا ودعوا الناس إلى عدم الخوف منها لأنها برأيهم من اختراع العقول البشرية، وبعضهم قصر دورها على زرع بذرة الحياة. (Jaeger,W.1960,p189)

١٠-٥- نادى السفسطائيون بالقضاء على التفاوت السياسي والاجتماعي بإعلان المساواة ودعوتهم إلى إلغاء العبودية فالطبيعة خلقت الناس أحراراً متساوين.

١٠-٦- آمن السفسطائيون بالحرية الإنسانية،و قدموا قوانين الطبيعة على القوانين الوضعية، وآمنوا بالديمقراطية نظاما للحكم وأسلوبا في الحياة، فالحرية عندهم وسيلة للترقي الأخلاقي، وهي أساس قيام المسؤولية التي لا تنهض إلا بالاختيار العقلاني الحر.

١٠-٧- تركت فلسفة السفسطائيين العديد من الآثار في فلسفة التربية في مختلف جوانبها، خاصة في نظرية المعرفة ونظرية القيم والأخلاق، وفي النظرية التربوية وتطبيقاتها العملية.

١٠-٨- تعرض السفسطائيون لانتقادات عديدة أهمها: أنهم تقاضوا أجراً عن تعليمهم، وجعلوا المعرفة إدراكاً حسياً من الواقع، وأنهم جعلوا القيم والمعرفة والأخلاق نسبية، وأنكروا آلهة اليونان، وأنهم ناصروا الديمقراطية السياسية التي تقوم على حكم الأكثرية، لكن هذه الانتقادات لا تصمد أمام دورهم التنويري الذي زعزع أسس المجتمع العبودي السياسية والاقتصادية والاجتماعية.(Zeller.E:1998)

المراجع

المراجع العربية

- أفلاطون(١٩٧٠): **المأدبه**، ت. وليم الميري، جمهورية مصر العربية، القاهرة: دار المعارف.
- أفلاطون(١٩٩٤): **المحاورات الكاملة**، ستة مجلدات، ط١، ت٠شوقي داؤود تمراز، لبنان: بيروت الأهلية للنشر والتوزيع.
- أفلاطون(د. ت): **جمهورية أفلاطون**،ت. حنا خباز، لبنان، بيروت دار القلم.
- إمام ،عبد الفتاح إمام(١٩٩٦): **أفلاطون والمرأة**، جمهورية مصر العربية، ط٢، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط٢.
- بدوي،عبد الرحمن، (١٩٧٩): **ربيع الفكر اليوناني**، جمهورية مصر العربية، ط٢، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- بدوي، عبد الرحمن(١٩٧٩): **خريف الفكر اليوناني**، جمهورية مصر العربية، ط٢، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- الجيار، سيد إبراهيم(١٩٧٤): **دراسات في تاريخ الفكر التربوي**، ط١ الكويت: وكالة المطبوعات،
- الخطيب، محمد، (٢٠٠٧): **الفكر الإغريقي**، ط٢، سورية، دمشق: دار علاء الدين.
- خليل، حامد، (١٩٨٩) **مشكلات فلسفية**، منشورات جامعة دمشق، مطبعة دار الكتاب.
- ديورانت، ول،(د.ت): **قصة الحضارة تاريخ اليونان**، المجلدان ٧-٨، ت. محمد بدران، لبنان، بيروت: دار الجليل.
- روسو، جان جاك(١٩٥٦): إميل أو **التربية**، ت .عادل زعيتر، مصر، القاهرة: دار المعارف بمصر.

- سنقر، صالحة(١٩٩٠): **الثقافة الفلسفية**، منشورات جامعة دمشق، كلية التربية: المطبعة الجديدة.
- الشبيني، محمد(٢٠٠٠): **أصول التربية الاجتماعية والثقافية والفلسفية**، ط١، جمهورية مصر العربية، القاهرة: دار الفكر العربي.
- صليبا،جميل(١٩٩٥): **تاريخ الفلسفة العربية**، ط٣، لبنان، بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
- عبد الدائم، عبد الله، (١٩٧٣): **التربية عبر التاريخ**، ط١، لبنان، بيروت: دار العلم للملايين.
- علي، سعيد إسماعيل (٢٠٠٠): **الأصول الفلسفية للتربية**، جمهورية مصر العربية، القاهرة: دار الفكر العربي.
- العوا، عادل(١٩٨٨): **الفلسفة الأخلاقية**، منشورات جامعة دمشق: مطبعة ابن حيان.
- العوا، عادل(١٩٨٨): **بحوث أخلاقية**، منشورات جامعة دمشق: مطبعة ابن حيان.
- فخري، ماجد(١٩٩١): **تاريخ الفلسفة اليونانية من طاليس إلى أفلوطين**، لبنان، بيروت: دار العلم للملايين.
- قرني، عزت(١٩٩٣): **الفلسفة اليونانية حتى أفلاطون**، الكويت: مطبعة ذات السلاسل.
- قرني، عزت(١٩٨٢): **أفلاطون في السفسطائيين والتربية**، ط٢، محاورة بروتاغوراس، جمهورية مصر العربية، القاهرة: دار المعارف.
- كرم، يوسف(د.ت): **تاريخ الفلسفة اليونانية**، لبنان، بيروت: دار القلم.
- مانتوي، جاك(١٩٩٨): **مختصر تاريخ الفلسفة**، ط١، ت. المختار بنعبدلاوي، سورية، دمشق دار معد للطباعة والنشر.
- المجيدل، عبد الله، والسناد، جلال(٢٠٠٦): **المدخل إلى الفلسفة**، سورية، دمشق: منشورات جامعة دمشق، كلية التربية.
- مراد، محمود(١٩٩٩) **الحرية في الفلسفة اليونانية**، جمهورية مصر العربية، الاسكندرية: دار الوفاء للطباعة والنشر.
- مطر، أميرة حلمي(١٩٩٨): **الفلسفة اليونانية تاريخها مشكلاتها**، جمهورية مصر العربية، الاسكندرية، دار الوفاء للطباعة.
- النشار، علي سامي (١٩٦٤): **نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان**، ط١، جمهورية مصر العربية منشأة دار المعارف.
- النشار، مصطفى، ١٩٩٧، **فكرة الألوهية عند أفلاطون**، ط٣، جمهورية مصر العربية، القاهرة: مكتبة الأنكلو مصرية.

المراجع الأجنبية

– البعلبكي، منير(١٩٨٥): قاموس المورد، دار العلم للملايين، بيروت ،لبنان.
- Jaeger. W.(1960The theology of early Greek philosopher's. Oxford, The clasendom, press
- Zeller. E.(1980)Outlines 0f the history of philosophy. new York.

«وصل هذا البحث إلى المجلة بتاريخ ٢٠٠٨/١/٢٩ وصدرت الموافقة على نشره بتاريخ٢٠٠٨/٩/٢٢»